الفصل الأول
فى فلسفة الابتلاء والتطهير

حين يؤمن العقل تطمئن النفس، ويسعد الفؤاد وينشرح الصدر ويحيا المؤمن رحلة وجوده فى هذه الدنيا فى سعادة روحية لوعرفها أهل الجاه والسلطان وعبيد الثروة والمال لجالدوه عليها، وفى هذا قال الشاعر فى خطابه لمولاه تبارك وتعالى:

فليتك تحْلُو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غِضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ
وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب ترابُ

● ولا يعجم عود المرء ويشف عن معدنه ويهذب نفسه ويسمو بمشاعره مثل البلاء والفهم عن الله فى حكمته والرضا بقضائه والصبر على بلائه والفوز بقربه والأنس بمناجاته والتضرع إليه.

● وقد خلق الله سبحانه وتعالى – الخلق ليعبدوه ويشكروه وليسبحوه بكرة وأصيلا، وجعل – تبارك وتعالى – الابتلاء أساس فلسفة الحياة وحكمتها فمن نجح فى اختبار الحياة ضمن السعادة فى دنياه وأخراه وظفر بمحبة مولاه، قال تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [الإنسان: ١، ٢]

● من أجل هذا جعل الله – تعالى – الدنيا محفوفة بالمكاره، ليس لها قرار، وأحوالها متغيرة، فلا حزن يدوم فيها ولا سرور، ولا صحة تدوم ولا مرض، ولا

فقر يدوم ولا غنى، فهى فى حقيقتها (دنيا)، لقصرها وسرعة زوالها وقلة متاعها وهى حتى إن أقبلت قلت، وإن حلت أو حلت، وإن كست أوكست، وكم من ملك وضعت له الشارات والعلامات فلما علامات، وهى مع إقبالها على الإنسان إما أن تزول بنعيمها عنه أو يزول هو عنها وعن نعيمها بفراق الحياة الدنيا ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى إذ يصف تلك الحال فيقول:

ومن تضحك له الدنيا فيغتر

يمت كقتيل الغيد بالسمات

● إن الله تعالى فى اختباره لخلقه فى هذه الدنيا يختبرهم بالغنى والفقر والصحة والمرض والعطاء والمنع، ويبلو بعضهم ببعض، فيبتلى القوى بالضعيف والغنى بالفقير، وذا الجاه بمن لا جاه له، يقول تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] كلا فليس الابتلاء بالعطاء والرخاء – بالضرورة – أمارة على رضا الله تعالى، وإنما قد يكون فتنة وغضبًا من الله، كما كان الحال مع قارون بماله وفرعون بجاهه وسلطانه وليس الابتلاء بالمنع أو بإنزال البلاء أمارة غضب من الله، بل قد يكون معبرا لرضوان الله تعالى والدرجات العلا من الجنة مع رضا العبد المؤمن وصبره وفهمه عن الله تعالى.

– فقد يغدق المولى عز وجل على عبده بمختلف صنوف النعم من العافية والمال والجاه والسلطان فيستأثر العبد بما أنعم عليه مولاه، فلا ينصر مظلوما ولا يعطى محرومًا ولا يغيث ملهوفًا ولا يكرم مسكينا أو يتيما بل يتكالب على جمع المال، لا يبالى أمن حلال هو أم من حرام؟! فتراه يأكل مال اليتيم ولا يكرم المسكين ولا يعدل مع الأجير ويمطل الناس حقوقهم، ومثل هذا الصنف راسب فى اختبار الحياة ويصير ماله وجاهه وسلطانه نقمة ونارا يكوى بها فى جهنم يقول تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم**

بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] ويقول سبحانه: ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلا لما * وتحبون المال حبا جما ﴾ [الفجر: ١٥ - ٢٠]

● وتتنوع وسائل البلاء التى يبلو بها المولى - عز وجل - عباده فى المال والدين والولد، وهو سبحانه - يصطفى أهل البلاء الناجحين فى الابتلاءات الربانية من عباده، ليرفع درجاتهم، وليكونوا فى منزلة يغبطهم عليها النبيون والشهداء والصالحون يوم القيامة، ولم لا وقد بشرهم الله تعالى بذلك فى كتابه الكريم إذ يقول: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧] وكذا قوله تعالى: ﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر: ١٠]

● وقد ابتلى المولى عز وجل - الأنبياء وأولى العزم من الرسل بالمرض وفقد الولد والخوف ونقص الأموال والثمرات، فهذا نبى الله آدم أبو البشر عليه السلام يبتليه ربه فيأكل من الشجرة المحرمة بتأثير إغراء الشيطان ووسوسته فيخرج من الجنة مع زوجه ويهبط إلى الأرض ليشقى ويكدح فى عمارة الأرض وتستمر معركته وذريته مع ابليس وذريته إلى أن تقوم الساعة، وهذا نوح يبتلى فى زوجه وعقوق قومه وإعراضهم عنه وسخريتهم منه، وهذا نبى الله إبراهيم يواجه وثنية قومه وطغيان كبيرهم ومليكهم فيلقى به فى النار ويحرم من الولد حتى يرزق الله

إياه من زوجه المصرية هاجر وقد صار شيخا كبيرا، ويبتلى الله إيمانه فى ابنه الصبى اسماعيل (الغلام الحليم) الذى ما أن بلغ سن السعى والفتوة وتتفتح زهرة صباه حتى يبتلى أبوه أبو الأنبياء إبراهيم بالأمر بذبحه ويبتلى الغلام الحليم بهذا الأمر وكان البلاء عظيما كما وصفه القرآن الكريم ولكن لا يملك النبى المصطفى إلا الطاعة ويستجيب الصبى لأمر ربه ويعين والده على طاعة أمر ربه حتى يفديه الله بذبح عظيم ينزل به جبريل – عليه السلام – من السماء.

وهذا نبى الله يعقوب عليه السلام – يبتلى بفقد ابنه الحبيب يوسف وبالجوع ونقص فى المال والثمرات وهذا ابنه يوسف الصديق يبتلى بإغراء الشيطان ويبتلى بالسجن ومن قبل يبتلى بمكر إخوته وظلمات الجب وهذا نبى الله أيوب يبتلى بفقد المال والولد وذهاب العافية. قال تعالى: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء ٨٣] وهذا نبى الله يونس يبتلى بإعراض قومه ويرمى فى البحر فيلتقفه الحوت ويحيا فى ظلمات بطن الحوت ولولا تسبيحه وتضرعه للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون وقال تعالى: ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]

وهذا نبى الله موسى يبتلى بالخوف وطغيان فرعون ويبتلى بقومه الذين عبدو العجل لمجرد أن تركهم للقاء ربه، وهذا نبى الله عيسى عليه السلام يبتلى بعداء بنى إسرائيل وتهرب به أمه العذراء عليها السلام خوفا من بطش بنى إسرائيل، ويبتلى عيسى عليه السلام – بتآمر بنى إسرائيل على حياته بالقتل والصلب، لولا أن نجاه الله تعالى ويلقى يهوذا الخائن جزاءه ويبتلى محمد – ﷺ – وخاتم الأنبياء والمرسلين فى سبيل دعوته صنوفا من العذاب، فيتعرض للأذى والجوع والخوف والحصار الاقتصادى، ويُبتلى بفقد الزوج والولد ثمرة القلب وفلذة الكبد فيودع ابنا بعد آخر ويقول: إن العين لتدمع وإن القلب يحزن وإنا

لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولكن لا نقول إلا ما يرضى ربنا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

● وعلى نهج الأنبياء والصالحين والناجحين فى الابتلاءات الربانية مع التسليم الفائز بمرضاة الله والنفس المطمئنة بقضائه جاءت رسائله إلى أهل البلاء فى (حديث النفس المطمئنة) باليراع المثقب والجملة البليغة لأخى الأديب الإسلامى النابه عبد الرحمن على فلاح صاحب العقل المؤمن والقلب الزاكى والفكر الثاقب والنظر السديد.

– ولا غرو فى ذلك فهو رجل يصدر عن مصباح القرآن الكريم ومشكاة النبوة وآفاق فسيحة فى الفكر الإسلامى والنظر العقلى والتجارب الإنسانية، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها ولذا جاءت رسائله فى (حديث النفس المطمئنة) فياضة بعميق الرؤية وسداد التحليل وصائب النتائج.

– أجل لقد جاءت تلك الرسائل القيمة دروسا بليغة من مدرسة اليقين والحكمة البليغة، وأثبت – بحق – نجاحه الممتاز فى اختبارات الجامعة الإيمانية كما عبر عن تجربته الإيمانية – الأمر الذى سنوضحه – بتوفيق الله – فى المقالة التالية.

* * *